

مغاربة دخلوا الصين

محمد سعيد صمدي *

1- الترحال والسياحة في الأرض

إن أبعد نقطة عن سكان المغرب الأقصى جهة الشرق هي يابسة إمبراطورية الصين، وهي واحدة من المسافات الأكثر بعدا في العالم، مع ما يكتنف هذا البعد - وقتئذٍ - لمن أراد أن يقصد هذه الآفاق من اضطرابات ومخاوف ومخاطر برا وبحرا. ورغم الصعوبات والتحديات التي تفاوتت حدتها باختلاف أزمنة التنقل والسفر، فإن الإنسان العربي المسلم استطاع أن يتواصل مع الأمم المختلفة باختلاف أزمنة الرحلات - لونا وشكلا ودينا ولسانا - في تجسيد نموذجي لقيم التسامح والانفتاح والتجاور مع الآخر وتحقيق كامل للبعد الإنساني والتواصل للحضارة العربية الإسلامية (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين) (1) وقال تعالى: - (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) (2). ومصطلح "التعارف" حسب المفهوم القرآني يرمز إلى الدلالة الواسعة والحاملة لقيم كونية متعددة تتحقق بواسطتها منافع ومكاسب تشترك فيها الأجناس البشرية "يا أيها الناس".

ويؤكد علم الاجتماع أن الإنسان ميال بطبعه الفطري إلى الحركة والتنقل والسفر للأسباب والضرورات الإنسانية المتعددة، ذلك أن الاستقرار الدائم والسكونية والثبات في دائرة مكانية محدودة يضفي على النفس إحساسا بنوع من القلق وضيق الأفق وعدم الإفادة من تجارب وأنماط وخبرات الأمم الأخرى. وهذا ما جعل بالفعل والممارسة العديد من الأفكار والمقولات والعادات والطقوس ونظم التسيير تنتقل من بلد لآخر، ومن شعب لآخر، ومن أمة لأخرى بفعل التفاعل والتداول. وهذا ما يفسر أيضا الانتشار الواسع للدين الخاتم في أصقاع الأرض - عربا وعجما - ويدخل في الباب استفادة العرب والمسلمين من تجارب رائدة للأمم الأخرى على مر العصور، وكذا إفادة غيرهم من حضارتهم وثقافتهم وتجاربهم.

وقد لعبت ألوية الفتوحات الإسلامية دورا بارزا في نقل مفاهيم الدين الإسلامي - عقيدة وشريعة - وكان للقوافل التجارية وارتباطاتها وما تثمره من علائق إنسانية حميمة إسهام في تعميق وتثبيت هذه القيم التي بشكل أكثر في المعاملات والمواقف المعيشية التي أظهرت التاجر العربي المسلم أمام الأعراق والأجناس الأخرى من المتعاملين معها على وجه حسن ومقبول.

وجدير بالذكر في هذا المقام أن نشير إلى ما أسهمت به "الرحلات" التي كانت تُشدُّ لأغراض متباينة ومناطق متباعدة في إشاعة قيم الخير ومبادئ الدين وفضائل السلوك إلى

الناس عامة، ومنها الرحلات السياحية والصوفية التي كان أصحابها يبحثون فيها عن الأولياء الصالحين والعارفين بالله(3)، وأيضا الرحلات السّفارية التي كان يبعث بها الخلفاء والملوك المسلمون سُفراءهم إلى نظرائهم الملوك. وتعد كتب التراجم والرحلات والوثائق المحفوظة من أهم ما أرّخ لهذا التواصل والانتشار في الأرض.

وإذا كانت أرض الحجاز يحرمه معظم وروضته الشريفة- مقصدَ العديد من رحالة العرب المسلمين وعموم ركب الحجيج الذين عبروا الآفاق لأداء نُسك الفريضة والعمرة وزيارة قبر الحبيب - عليه أزكى الصلاة والتسليم -؛ فإن آخرين اختاروا ألا يعودوا أدراجهم إلى بلادهم، وجعلوا من مكة المكرمة نقطة بداية لرحلات أخرى خاصة تجاه بعض دول المشرق كمصر والشام أو تجاه القارة الآسيوية وجزر المحيط الهندي واليمن وغيرها من البلدان.

والمغاربة بما عُرفوا به من عشق متزايد لأرض النبوة ومهبط الوحي من جهة؛ وبما اشتهروا به من حب الرحلة والسفر سيسهموه بدورهم في نشر الإسلام في البلدان التي زاروها أو فضلوا الإقامة بها لسبب ما. ومعلوم أن التجار المسلمين لم يكونوا يفصلون في تعاملاتهم التجارية وعلاقاتهم الاجتماعية قيم الدين وضوابطه عن كل معاملاتهم مهما كان نوعها؛ وهذا ما أضفى على تواجدهم في البلدان التي قصدوها بُعداً دعويًا وإشعاعًا إسلاميًا من حيث أرادوا أو لم يريدوا.

والبحث والنش في كتب التراث وخاصة مدونات التاريخ وكتب التراجم والرحلات يقودنا إلى استشفاف واستخراج الكثير من الإفادات والمعطيات التي تغني هذا الموضوع. وقد عنّ لي أن أبرز بعض مظاهر التواصل وخدمة الدين في العمق الآسيوي/الصين من قبل أهل الغرب الإسلامي.

2- من مظاهر التواصل المغربي الصيني/نموذج التجار والفقهاء

أ- من ملامح الصّلات والروابط المغربية الآسيوية

كان للمغاربة دور وإسهام في نشر معالم دينهم بالديار الصينية وغيرها منذ أمد بعيد رغم بُعد ديارهم. وإذا تعددت أسباب السفريات وطبيعة التنقلات فإن بصمات وتأثيرات المقيمين منهم والزائرين كانت على مستوى كبير من التأثير؛ وتتجلى في عدة مظاهر كالدعوة إلى الدين والتزام تعاليمه وتمثل قيمه والتصاهر الأسري والاندماج المجتمعي.

وتحفظ الكثير من المصادر والمراجع وتسجل بمداد لا يبلى - انتقال العديد من المغاربة إلى بلدان في أطراف الأرض كان يُعدُّ الوصول إليها في زمن الرحلة والسفر من المستحيلات أو من المهلكات، ونذكر على سبيل المثال رحلة أبي البركات البربري المغربي إلى جزر "المالديف"(4) التي دخلها قبل أن يصل إليها بلديّه ابن بطوطة (703-779 هـ)، وإلى هذا الفقيه المغربي أبي البركات يرجع فضل إسلام ملك هذه الجزر السلطان أحمد شة-نورازة؛ وأسلمت بعده جميع ساكنة جزر "ذبية المهل"، يقول ابن

بطوطة: «فأقام عندهم، وشرح الله صدر الملك للإسلام، فأسلم قبل تمام الشهر (5) وأسلم (أهله وأولاده وأهل دولته)»(6)

ونذكر أيضا انتقال أسر كاملة من المغرب إلى بلاد الهند كبيت "خَلَابَة الفاسي" وبيت "علي اللعبي الفاسي" قصد التجارة(7)؛ وانتقال أسر أخرى من أهل العلم والأدب أو الولاية والصلاح كأسرة الفقيه الطبيب الأديب جمال الدين المغربي الغرناطي الأصل البجائي المولد(8) الذي التقاه الرحالة الطنجي ابن بطوطة وصاحبها بها -الهند-، وأسرة أبي القاسم المرسي خال الفقيهين قوام الدين السبتي وأخيه أبي محمد -سيأتي الحديث عنهما-. ومن الأولياء العارفين الذين وصلوا ديار الهند الشيخ إسحاق المغربي المتوفى سنة 776 هـ بعدما عمّرَ 120 سنة(9)، والشيخ محمد المصمودي المغربي الذي سكن بلاد البنغال، ووصفه ابن بطوطة أنه كان من الصالحين؛ وسكن هذا البلد قديما ووافته المنية وهو يقيم عند ابن بطوطة بدّهلي(10)، وصاحب الكرامات الشيخ عبدالرحمن الإدريسي المكناسي المتوفى سنة 1085 هـ(11) وقد تجذرت الصلات والروابط بين الهند والمغرب منذ عهد ابن بطوطة، وربما قبله بقليل، وعن طبيعة هذه العلاقة يقول الأستاذ محمد بن عبد الله: «إن هناك علاقة وأشجة، ونسبا وصهرا بين مسلمي القارة الهندية، وبين إخوانهم المغاربة، منذ أن دخل الرحالة المغربي ابن بطوطة شبه القارة الهندية؛ وأسند إليها سلطانها منصب قاضي المسلمين، وتزوج منها، وربط أمتن الروابط بين مسلمي الهند (والمغرب)»(12).

ويجمل في هذا السياق أيضا، ووفاءً لأحد رجالات المغرب الأفذاذ من المتأخرين، أن نذكر بالجهود التي قام بها العالم السلفي محمد تقي الدين الهلالي المكناسي أواسط القرن الرابع عشر الهجري في خدمة الدين، واللغة والأدب العربيين بدار العلوم وغيرها من المعاهد والمنتديات الثقافية الهندية.

وعلى واجهة أخرى مجاورة للصين من الجهة الجنوبية/الفيتنام، يفيدنا مرجع تاريخي فرنسي جديد، صدر مطلع سنة 2003م تحت عنوان "غبار إمبراطورية" للمؤلفة الفرنسية "نيلكيا ديلا نوي"، أن عددا هائلا من المغاربة جندتْهم فرنسا ضمن جيوشها التي احتلت بلاد الفيتنام التي كانت تعرف باسم الهند الصينية؛ وستقلب الآية على فرنسا حيث سيتمكن العديد منهم من الهروب من الجيش الفرنسي بسبب الدعاية المؤثرة التي قام بها الزعيم الوطني الفيتنامي "هوشي منه" وأشاعها المقاومون منذ بداية الغزو، ومفادها إقناع الجنود المغاربة عموما «بعدم خوض الحرب ضدهم، ذلك أن فرنسا تحتل بلدانهم الثلاثة أي المغرب والجزائر وتونس؛ وتعامل مواطنيهم بقسوة وعنف وشراسة، وبفضل هذه الحملة الدعائية، تمكن الوطنيون الفيتناميون من كسب تأييد العديد من الجنود المغاربة الذين فروا من الجيش الفرنسي ليعيشوا متخفين بين السكان الأصليين»(13)، ونتج عن هذا التخفي والهروب الانصهار داخل المجتمع الفيتنامي حيث تحكي الباحثة من نماذج الزواج الذي حصل بين مغاربة و«وهم محمد الجيلالي وابن الطاهر وميلود وزوجاتهم الفيتناميات "تي آن وونه وماي" وأولادهم الذين كانوا يحملون أسماء فيتنامية وعربية...

وكان الفيتناميون يسمون المغاربة بالأوروبيين السود»(14). وهذا تجل إنساني عجيب يقلب المشهد والصورة كلية من صور اعتراك وحراب وفتك إلى مشاهد حب وأفراح وعواطف، من إنسان محارب مستعمر إلى إنسان مسالم محب عاشق، انتصرت بين كوامنه فضائل الحق والحقيقة والسمو الأخلاقي، وما ذلك إلا من تأثير العمق الديني الذي تحتفظ به الشخصية المغاربية المسلمة.

ب- الحضور المغربي على الأراضي الصينية

كيف دخل الإسلام الصين؟

وبها يتم التدريس في جميع المستويات التعليمية وفي مختلف المعاهد العليا، وتسود بهذه الديار المعتقدات البوذية والكونفوشوسية، وأغلب أهلها -الذين قاربوا المليار والنصف- لا- يؤمنون بدين، وقد استطاع الدين الإسلامي أن يجد له منافذ ومسالك ليقتحم أسوار الصين الصلبة.

وبدأ ينتشر، دخل الإسلام الصين منذ فجر الإسلام على عهد الخليفة عثمان بن عفان ويتوسع رويدا رويدا عن طريق التجارة خاصة تجارة الحرير والخزف والشاي والمخترعات الصينية كالبارود والإبرة المغناطيسية وصناعة الورق التي كانت تمتاز بجودة عالية(15) بالصين وب"سمرقند" المدينة المجاورة للحدود الصينية والتي فتحت مع مطلع القرن الثاني للهجرة (704 م)؛ وعن طريق البحارة والبعثات الرسمية. وأسهمت في نشره العرب والفرس والأتراك الذين استقروا مدينة صين كلان (كانتون حاليا) وكونوا بها جالية واسعة وبنوا مساجد معظمها على شكل المعابد الصينية القديمة، وقد سماهم وعظم أمر المسلمين وتسامح معهم الحكام خاصة، "Huihui/الصينيون ب" هوي هوي أسرة تانغ التي انتهت سنة 295 هـ الموافق 980 م، وكذا أسرة سونج التي تولت السلطة بعدها، ونشطت أكثر حركة التجارة في زمنها.

واستطاع المسلمون أن يحققوا لأنفسهم موقعا مميزا ومحترما داخل النسيج العقدي لأهالي الصين، ففي "خانقو/ بيكين حاليا" مثلا كنا نجد كما يقول أبو الحسن المسعودي: «(خلائق من الناس مسلمون ونصاري ويهود ومجوس وغير ذلك من أهل الصين)»(16).

وتعدُّ العرقيات والمعتقدات وتسامح المسلمين الوافدين ومعاملتهم الحسنة هو ما دفع بمجموعات لا- بأس بها من أهل هذه الديار إلى الدخول في الإسلام الذي يدعو إلى نبذ العنصرية والتمييز، ويشجع على التفاعل والانسجام بين الشعوب والتسامح مع أهل الملل والنحل الأخرى، على غرار ما حصل للوجود العربي الإسلامي بشبه الجزيرة الإيبيرية(الأندلس) التي حقق بها هذا التواجد حضارة مشهودة. وقد تفرق الإسلام بأرض الصين في عشر قوميات من أشهرها: قومية هوي والويغور والقازاق(توجد بالصين ست وخمسون 56 قومية، وتمثل قومية "الهان" 92% من السكان)؛ ومع استفحال القمع والاستبداد وكبت الحريات في بعض الفترات تعرضت عقيدة المسلمين للإبادة والإقبار،

إلا أن روح العقيدة ويقين الإيمان ظلّا ثابتيْن مُكْتَرِزيْن في قلوب هؤلاء الذين وصفتهم في مناسبة سابقة(17) بالقابضين على الجمر فعلا وحقيقة

وها هو ذا راهنُ الصين الإسلامي - كما عاينته- شاهد على جذوة الإسلام المتقدّة في نفوس مسلميها رغم جهود الطمس والاستئصال والاضطهاد. وقد قاوم مسلمو الصين إشكالية صعوبة نطق الحريف العربي وفهم دلالة تراكيبه، ويشرح أحد أبناء هذا البلد كيف استطاعت العربية أن تُؤَلد مخرجها من اللسان الصيني العَصِيّ؛ يقول العالم المسلم الدكتور ياسين يانغ شيا و(18): «لقد بدأ تعليم اللغة العربية في المساجد بعد انتشار الإسلام في الصين، أي بعد سنة 651م (قبل ألف وأربعمائة سنة). وفي ذلك الوقت كان التعليم الديني يقام في بيوت المسلمين عن طريق التلقين الشفوي، وكان بعض المسلمين يكتبون الآيات القرآنية بخط اليد، ويعلمونها لأبنائهم، ومع مرور الزمن ظهرت في المدن الإسلامية أعداد كبيرة من مخطوطات القرآن الكريم والتي بقي بعضها محفوظا حتى الآن. وبعد ذلك بدأت المساجد تفتح أبوابها لأولاد المسلمين، وتحولت إلى حلقات دراسية (يجتمع فيها التلاميذ ليتلقوا التعاليم الدينية عن طريق دراسة اللغة العربية)»(19)

وكان لبعض أهل المغرب بصمات واضحة في تثبيت دعائم الدين، وربط أواصر المحبة والوئام بين العنصر الصيني والعربي الإسلامي عموما، وسنحاول إلقاء الضوء على صور من هذا التواصل من خلال بعض رجالات المغرب الذين قصدوا هذه الآفاق النائية، فمنهم من ساح وجال في رحاباتها الممتدة وغادرها، ومنهم من أحبها واستوطنها

الحضور المغربي داخل النسيج المجتمعي الصيني

يمثل الحضور المغربي بالشرق الأقصى جزءاً من مكونات الحضور العربي الإسلامي، ويشهد لذلك قول ابن بطوطة عند حديثه عن تفاصيل بروز سلطان الهند والسند محمد شاه أبي المجاهد ليلة العيد: «... ويركب قاضي القضاة... وسائر القضاة، وكبار الأعرزة من الخراسانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة، كل واحد منهم على فيل، وجميع الغرباء عندهم يسمون الخراسانيين»(20). ويظهر أن الغرباء بهذا المعنى كانوا من المقدمين عندهم ومن "كبار الأعرزة" الذين يحظون بملاقة الملوك عندهم

وتحفظ المصادر والمظان الأدبية التراثية بعض الأسماء المغربية التي سجلت حضورها: بأرض الصين النائية، ومن هؤلاء نذكر ما تيسر الوقوف عليه

التاجر المغربي عبد الرحيم الصيني

يمكن للقارئ أن يجد نتفا من المادة الصينية في رحلة "تحفة الألباب ونخبة الأعجاب»(21) لأبي حامد عبد الرحيم الأندلسي الغرناطي (473-565 هـ)، الذي تحدث فيه باقتضاب شديد عن شخصية مغربية من القرن السادس الهجري، كانت تعرف في المغرب باسم عبد الرحيم الصيني. ومن مميزات هذا الكتاب/التحفة أن صاحبه رغم عدم وصوله في أثناء رحلاته المتنوعة- إلى تخوم الصين، فإنه استطاع أن يروي بعض

عجائب هذه البلاد نقلا عن أحد رجالات مصر، يقول أبو حامد الغرناطي: «وكننت بمصر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة 512 فاجتمعت بها بالشيخ أبي العباس الحجازي، وكان ممن (أقام بأرض الصين والهند أربعين سنة، وكان الناس يحدثون عنه العجائب)»(22)

ويحدثنا أيضا أبو حامد عن شخصية عبد الرحيم المغربي التي نقلت بدورها بعض الأعاجيب والمشاهدات الغربية من هذه البلاد التي لا يدخلها أحد إلا ويخرج منها متبلى مشاهدة وعجائبية معاينة تجر عليه ألوانا من الشكوك (Exostisme) بالتحدث بغرائبية والريبة والتكذيب، قال أبو العباس المذكور لما طلب منه أبو حامد الغرناطي التحدث ببعض مشاهداته العجيبة: «قد رأيت أشياء كثيرة ولا يمكنني أن أحدث بها لأن أكثر الناس يحسبونها كذبا. قال الشيخ أبو بكر (23): يكون ذلك من العوام الجهال. وأما العقلاء وأهل العلم- فإنهم يعرفون الجائر والمستحيل. وذكر عجائب خلق الله تعالى- يستحب التحدث بها إظهارا لقدرة الله تعالى- في عجائب مخلوقاته»(24). وفي هذا السياق بالضبط سيرد اسم صاحبنا عبد الرحيم المغربي الصيني، والذي نعرف عنه من خلال الكتاب أنه كان يعمل بالتجارة، وقد ذكره عند حديثه عن طير ضخمة عجيبة قد يحير المرء عند سماع بعض أوصافه، ويسمى هذا الطير (الرخ)، يقول صاحب تحفة الألباب ناقلا عن الجاحظ: «ويكون في جزائر بحر الصين الرخ، يكون جناحه الواحد عشرة آلاف باع، ذكر الجاحظ في كتاب الحيوان، وكان قد وصل إلى المغرب من التجار ممن سافر إلى الصين في البحر وأقام بها مدة، ووصل إلى بلده المغرب بأموال عظيمة، وكان عنده أصل ريشة من جناح الرخ كان يسع فيها قربة من الماء، كان الناس يتعجبون من ذلك وكان يعرف الرجل بعبد الرحيم الصيني؛ وكان يحدث بالعجائب، فذكر أنه سافر في بحر الصين وألقتهم الريح إلى جزيرة عظيمة، فخرج إليها أهل السفينة ليأخذوا الماء والحطب، فرأوا فيها قبة عظيمة أعلى من مائة ذراع، لها لمعان وبريق، فتعجبوا منها. فلما دنوا منها وإذا بها بيضة الرخ، فلما دنوا منها جعلوا يضربونها بالفؤوس والخشب والحجارة حتى انشقت كأنه جبل فتعلقوا بريش جناحه فجروه، فنفض جناحه فبقيت هذه الريشة عند غلماني، خرج أصلها من لحم جناحه ولم يكمل بعد خلقه، قال: فقتلوه وحملوا ما قدروا عليه من لحمه ورحلوا. وقد كان بعضهم طبخ في الجزيرة قدرا وحركوها ببعض الحطب الذي طبخوا به، وكان فيهم مشائخ، فلما أصبحوا رأوا المشائخ قد اسودت لحامهم، ولم يشب بعد ذلك اليوم من أكل من ذلك الطعام، فكانوا يقولون: إن ذلك العود الذي حركوا به القدر من شجرة الشباب، والله أعلم.

قال: فلما طلعت الشمس رأوا الرخ قد أقبل في الهواء كالسحابة العظيمة، وفي رجليه قطعة حجر كالبيت العظيم، أكبر من السفينة فلما جرى السفينة ألقى ذلك الحجر، وكانت السفينة مسرعة بسرعة من الأتقال عليها الشراعات، فوقع الحجر في البحر وسبقت السفينة، (25)«U»، ونجانا الله

إلى هنا ينتهي الحديث ما حكاه الجاحظ عن عبد الرحيم الصيني، ويلاحظ تعمدنا نقل النص كاملا على طوله لأن مثل هذه المرويات المتسلسلة والمتشابكة تقتضي عدم البتر

والتصرف؛ ولا يهمننا هنا أن نبحت موضوع التصديق أو التكذيب في مثل هذه المحكيات، لأن لذلك مساق آخر للمناقشة والمباحثة، وقد اشتغل به بعض الدارسين المعاصرين (26). ويبقى أن عبد الرحيم كان واحداً من أوائل المسلمين المغاربة المشتغلين بالتجارة الذين دخلوا الصين وأقاموا بها مدة من الزمن، وعاد بعد ذلك بتجارة مربحة كما حكى الجاحظ

الشيخ الفقيه أبو الحسن سعد الخير الأندلسي

من الفقهاء الصالحين الذين وصلوا إلى أرض الصين مع مطلع القرن السادس الهجري الفقيه الأندلسي الذي كان ينعت نفسه بالصيني، سعد الخير بن محمد بن سهل الأنصاري؛ وننقل هنا ما جمعه عنه ياقوت الحموي معرفاً بشخصيته: «... قال الحازمي: كان سعد الخير الأندلسي يكتب لنفسه الصيني لأنه سافر إلى الصين... قال المفجع في كتاب المنقذ، وهو كتاب وضعه على مثال الملاحن لابن دريد: ... وقال أبو سعد: وممن نسب إلى الصين أبو الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل بن سعد الأنصاري الأندلسي، كان يكتب لنفسه الصيني؛ لأنه كان قد سافر من المغرب إلى الصين، وكان فقيهاً صالحاً كثير المال، سمع الحديث من أبي الخطاب بن بطر القاري وأبي عبد الله الحسين بن محمد بن طلحة النعال وغيرهما؛ وذكره أبو سعد في شيوخه، ومات سنة 541 هـ» (27). وهكذا يكون الأفق الأندلسي قد تواصل بدوره ومبكراً مع أقصى الشرق بأرض الصين؛ عن طريق أحد خيرة رجالته الذي جمع بين الفقه والصلاح والغنى كما شهد له بذلك مترجموه

الشيخ الفقيه قوام الدين السبتي البشري

ومن شيوخ العلم في القرن الثامن الهجري الذين ارتحلوا إلى بلاد الصين، واتخذوها موطناً ومقاماً عالم من علماء وفقهاء سبته العالمية، إنه الفقيه قوام الدين السبتي البشري الذي سبق معاصره ابن بطوطة إلى هذه الديار؛ وقد أثنى هذا الأخير عليه كثيراً لما التقاه هنالك عن طريق الصدفة ببلاد الغربية النائية/الصين وفاضت أعينهم من الدمع كما سئرى

ولا شك أن لعلماء سبته فضلاً كبيراً في نشر الثقافة الإسلامية منذ القاضي (عياض السبتي 544-476 هـ) الذي طبع كتابه "الشفاف بتعريف حقوق المصطفى" أفاق الدنيا. يقول الأستاذ أحمد حدادي مُثنيّاً على علماء سبته وعلى قوام الدين السبتي الصيني خصوصاً: «أما علماؤها فكانوا من النباهة والذكاء والفتانة وحب المغامرة بحيث إنهم جابوا الآفاق وخبروا بالمعرفة والحدق، ما بين المحيط الأطلسي وصين الصين وخان بالق (بكين حالياً)، وقوام الدين السبتي الذي اغرورقت عيناه بالدموع لما التقى به ابن بطوطة، سابقاً إياه إليها هو وثلة من الأولين إلى تلك الديار، شاهد عدل وبرهان واضح على ذلك. إنها لتجربة إنسانية فريدة، وكان السبتي يحب المغامرة البحرية والمغامرة العقلية، فمغامرة البحر بحكم الجراءة عليه بصنع ذات الألواح والدرس والحدق في ذلك، ولهذا ركبوه غير هيابين حتى ذللوا ما شمس منه، وأما مغامرة العقل فتتمثل في فكر (علمائها ونبوغهم وسبقهم إلى كثير من الفضائل وتخليد المآثر» (28).

يمكن أن نذكر هنا ترجمة تشفي الغليل عن هذه الشخصية المغربية من المباحث التي شغلتنى لبعض الوقت، ولم أقف -حسب بحثي وحدود اجتهادي- على تعريف بها مما قل أو أكثر في مظان المصادر؛ الأمر الذي جعلني أزعج أن الموسوعة الحافلة/التحفة لابن بطوطة قد تفردت بذكر هذا العالم وبعض ملامح شخصيته. وحتى محمد ابن تاويت التطواني لما كان يدون "تاريخ سبته" ووصل إلى الرجل اكتفى بقوله: «وقد ورد في القرن الثامن ذكر بعض الرحالين من سبته، في رحلة ابن بطوطة، فنجد فيها...»(29) وأورد الأخبار التي تضمنتها التحفة. على أن المهدي السبتي فاتته أن يذكر هذا الفقيه (السبتي ضمن بحثه الفريد "ابن بطوطة وأعلام الغرب الإسلامي" (30)).

وإذا استجمعنا -بنوع من التأمل والربط- تفاصيل ما كتبه ابن بطوطة سنجد أن قوام الدين السبتي ينتمي لأسرة سبتية عالمية، فخاله هو أبو القاسم المرسي الذي سافر معه ابن أخته إلى حدود بلاد الهند (31) فتوقف الشيخ هنالك، بينما واصل قوام الدين الفقيه الشاب وقتئذ المسير إلى الصين، في الوقت الذي أثر فيه أخوه العالم الفقيه أبو محمد البشري الرحيل والإقامة بسجلماسة المتاخمة لحدود الجزائر (جنوب شرق المغرب وتعرف حالياً بالريصاني)؛ ومن موافقات العجائب أن ابن بطوطة سيلتقي في سجلماسة وربما صدفة بأخيه هذا -أبي محمد- بعد عودته من الرحلة العالمية الكبرى، وهو يشق طريقه ثانية نحو الصحراء في رحلة سودانية (32). إننا أمام أسرة سبتية عاشقة للترحال وسياحة الآفاق، ولدارسي أدب الرحلة أن ينبشوا في طبيعة هذا العشق وهذا الاختلاف في الاتجاهات لدى ساكنة الغرب الإسلامي وتنتد. ويكفي تحفة النظار فخراً أن صاحبها أوقفنا على بيت من بيوتات سبته المغمورة التي اشتهرت خارج بلدتها/سبته السلبية فك الله أسرها من قبضة الإنسان.

وفيما ما يلي المادة الإخبارية المهمة والمؤثرة التي حبرها أبو عبد الله ابن بطوطة، يقول وبينما أنا يوماً في دار ظهير الدين: «(Kien-ChangFu) بعد دخوله مدينة قنجنفو القرلاني (33)، إذا بمركب عظيم لبعض الفقهاء المعظمين عندهم، فاستوذن عليّ وقالوا: مولانا قوام الدين السبتي. فعجبت من اسمه؛ ودخل إليّ. فلما حصلت الموانسة بعد التحية سئلتني أن أعرفه، فأطلت النظر إليه، فقال: أراك تنظر إليّ من يعرفني. فقلت له: من أي البلاد أنت؟ فقال: من سبته. فقلت له: وأنا من طنجة. فجدد السلام عليّ، وبكى حتى بكيت لبكائه، فقلت له: هل دخلت بلاد الهند؟ فقال لي: نعم، دخلت حضرة دهلي. فلما قال لي ذلك تذكرت، وقلت له: أنت البشري؟ قال: نعم. وكان وصل إلى دهلي مع أبي القاسم المرسي، وهو يومئذ شاب لا نبات بعارضيه، من حُذاق الطلبة يحفظ الموطأ. وكنت أعلمت سلطان الهند بأمره فأعطاه ثلاثة آلاف دينار، وطلب منه الإقامة عنده فأبى. وكان قصده في بلاد الصين، فعظم شأنه بها، واكتسب الأموال الطائلة. أخبرني أن له نحو خمسين غلاماً ومثلهم من الجوارى، وأهدى إلي منهم غلامين وجاريتين وتحفا كثيرة. ولقيت أخاه بعد ذلك ببلاد السودان، فبأ بعد ما بينهما

وكانت إقامتي بقنجنفو خمسة عشر يوماً... ومن تمام فضيلة هذا الفقيه البشري أن سافر

معي لما رحلت عن قنجنفو أربعة أيام، حتى وصلت إلى مدينة بيوم قطلو، مدينة صغيرة يسكنها الصينيون من جند وسوقة. وليس بها للمسلمين إلا أربعة من الدور أهلها من جهة الفقيه المذكور، نزلنا بدار أحدهم وأقمنا عنده ثلاثة أيام، ثم ودعت الفقيه (وانصرفت)»(34).

هكذا تكون الصورة قد استبانَت إلى حد ما عن شخصية قوام الدين الذي هاجر شابا يافعا وطالبا حذقا، وانغمس في المجتمع الصيني كلية، إلى أن أمسى فقيها معظما، ورجلا "مقدما، وتاجرا ناجحا لا يتحرك إلا في "موكب عظيم

ولاشك أن ابن بطوطة سينقل أخبار هذا العالم السارة ومكانته بالديار الصينية لأخيه الذي سيلتقي به سنة (753 هـ) بسجل ماسة، يقول: «ونزلت منها عند الفقيه أبي محمد البشري، وهو الذي التقيت أخاه بمدينة قنجنفو من بلاد الصين، فيا شد ما تباعدا، فأكرمني غاية الإكرام»(35). وجهل تاريخ وفاة الشيخ قوام الدين، والمؤكد أن ابن بطوطة تركه حيا لما قفل راجعا إلى المغرب، متم العقد الخامس من المائة السابعة

الرحالة الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد اللواتي الطنجي المشهور بابن بطوطة

من أشهر الرحالين العرب والمسلمين الذين دخلوا الصين على عهد المغرب المريني، ودونوا رحلتهم بلدينا أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن بطوطة (703-779 هـ)، هذا الرجل الذي جمع بين عدة تحليات وشحه بها مترجموه (36)؛ ويكفي أن نسوق تحلية معاصره وأحد تلامذته المؤرخ الأديب أبي الوليد ابن الأحمر (ت 807 هـ) في كتابه شرح برده البوصيري الذي اختصره أبو زيد عبد الرحمن الجاديري (ت 839 هـ) «شيخنا الفقيه، القاضي، الخطيب الحاج، الكثير التجوال بالمشرق والمغرب وجميع البلاد، محمد ابن (بطوطة الطنجي، العارف بالتاريخ...»(37).

خرج رحالتنا من مسقط رأسه طنجة قاصدا بيت الله الحرام، إلا أنه بعد قضاء النسك مرتين ستجري به رياح السفر إلى ما لم يكن في الحسبان تماما؛ إلى أن وصل إلى طرف الدنيا

يمكن الاطلاع على المادة الصينية -على قلتها- الموثقة في رحلته المدونة بقلم ابن جزي واستشفاف العمق الديني لمسلمي هذه الديار، وحفاوة الاستقبال وكرم الضيافة وراحة الإقامة التي عومل بها ابن بطوطة كرمز عربي إسلامي مُبَجَّل. وقد رأيت بعيني لما زرت بلادهم هذه الهالة التبجيلية النابعة من سَلِيقِيَّة وسَدَّجِيَّة مسلمي الصين لكل وافد عربي مسلم.

كان أبو عبد الله ابن بطوطة محبا للعلماء عاشقا للزهاد وأهل العرفان، لا يدخل حاضرة ولا قرية إلا وسأل عن مساجدهم وديارهم وزواياهم(38)، ولعل إصراره على تحقيق هذه الرغبة هو الذي أوصله إلى العمق الصيني؛ يقول لما التقى بأحد العارفين الزهاد الشيخ برهان الدين الأعرج بالإسكندرية: «... وأقمت في ضيافته ثلاثا. دخلت عليه يوما فقال

لي: أراك تحب السياحة والجولان في البلاد. فقلت: نعم، إني أحب ذلك؛ ولم يكن حينئذ بخاطري التوغل في البلاد القاصية من الهند والصين. فقال: لا بد لك إن شاء الله من زيارة أخي فريد الدين بالهند، وأخي ركن الدين زكرياء بالسند، وأخير برهان الدين بالصين، فإذا بلغتهم فأبلغهم مني السلام. فعجبت من قوله، وألقى في رَوْعِي التوجه إلى تلك البلاد. ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم وأبلغتهم سلامه» (39). ووافق ذلك وزكاه إن اختاره سلطان الهند المسلم محمد شاه أبو المجاهد لسفارية رسمية عند ملك الصين يُمَثَل فيها جنابَه؛ قال له السلطان: «إنما بعثت إليك لتتوجه عني رسولا إلى ملك الصين، فإني أعلم حُبَّكَ في الأسفار والجولان... وعَيَّن السلطان للسفر معي بهذه الهدية الأمير ظهير (الدين الزنجاني، وهو من فضلاء أهل العلم)» (40).

ورغم أنه كان يلتقي مع كل أصناف الناس، من الملك والأمير إلى الجوّاري والعبيد، إلا أنه كان يحس بسعادة غامرة حين يلتقي أهل ملته «وكننت إذا رأيت المسلمين بها، فكأنني لقيت أهلي وأقاربي» (41). وقدم لنا صورة عامة عن طبيعة المجتمع الصيني وسَيْرَ الحياة فيه؛ بل إنه في بعض المناسبات كان يصور المشاهد وبعض التعاملات بدقة مفيدة، ففي الجانب التجاري مثلا يمكن لرجال الأعمال والتجار عموما أن يتعرفوا على كل ما يتعلق بالتجارة في القرن الثامن الهجري منذ دخول التاجر إلى الصين إلى خروجه منها؛ كالتعاملات النقدية وما يمكن أن يتسوق به وتقاليد الإقامة. ومن عنايتهم الزائدة بالتاجر المسلم أنهم يسمحون له بأن يختار بين الإقامة عند تاجر مسلم يقيم بالبلد، أو بالفنادق المراقبة بشدة كما يفعلون مع باقي التجار الغرباء غير المسلمين؛ ويحرص حكام الصين أن يحمل الخارج من أرضهم من التجار بالخصوص ذكرى حسنة تُثَقَل وتُرَوَى خارج بلادهم؛ فكانوا يقولون: «لا نريد أن يُسمع في بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم في بلادنا، فإنها أرض فساد وحسن فائت» (42).

كان ابن بطوطة وهو يجول الصين معترزا بشخصيته العربية الإسلامية، لم يخلع لباسه العربي على الهيئة العراقية ويمارس شعائره التعبدية أمام الناس، ولا يأكل إلا ما ثبت له حليته، ومعروف ما يعانيه المسلم من أمر الأكل في هذه البلاد، حتى إن أحد الأمراء خصّه بطباخين مسلمين.

ومن بالغ الحفاوة وجميل التقدير أن مسلمي الصين كانوا يتناوبون على استضافته يوميا، ويُتَوَجَّون ذلك بالتحف والهدايا. ولا شك أنهم وجدوا فيه من العلم والصلاح والبركة ما زاد في حبهم له. ولولا بعض مظاهر الظلم البشع (43) و"المناكير الكثيرة" التي كانت "تقلقه" لأطال المقام بين ظهرانيهم، إلا أنه استعجل الأوبة.

أبو محمد ابن فرحان التّوّزري

لا- نعرف عن هذه الشخصية الشيء الكثير، ذلك أن الرجل وهو من أهل القرن الثامن الهجري، ورد ذكره ضمن الرفقاء والأصحاب الذين شقوا مع ابن بطوطة طريق السياحة والانتشار في الأرض ودخل معه الصين -إلى جانب رجل مصري لم يذكره باسمه- وكان

يعتمد عليه في بعض المهمات؛ إلا أن النص الرَّحلي لا يسعنا بتفاصيل مفيدة عن شخصية (ابن فرحان التوزري) (44).

هذه إذن بعض ملامح التواصل المغربي الصيني، وهي على ندرتها بطبيعة بعد المشرق عن المغرب- تدل دلالة عميقة على مدى الحب المتبادل والانسجام التام الذي أحس به بعض المغاربة الذين فضلوا الإقامة الدائمة كقوام الدين السبتي في (ق 8 هـ)، ومنصف الفيلاي في عصرنا هذا، وتدلل أيضا على الإسهام القيم الذي أسداه مثل هؤلاء العلماء الغرباء الذين استوطنوا بلاد الصين. وجدير بأهل الدين أن يجدوا فيه بأي أرض مكثوا- ما يحقق طمأنينة النفس، ويعمل على إذابة تأثيرات حلقة الغربية وتناثر العوائد واختلاف الألسنة.

:الهوامش

باحث وأكاديمي من المغرب (*)

سورة الروم، آية: 22 - [1]

سورة الحجرات، آية: 13 - 2

وتشهد كتب الفهارس والرحلات والمدونات الصوفية على هذا اللون من الرحلة أو -3 الزيارة التي تكون مطبوعة بطابع "القوم"، فهذا مثلا الشريف ابن عابد الفاسي (ت 1048 هـ) لما دخل اليمن ونزل بها كان حريصا على زيارة أوليائها والانتفاع ببركاتهم يقول في رحلته: «ورجعنا إلى محروس تريم، وزرنا من فيها من الأولياء الأحياء والأموات خصوصا...» رحلة ابن عابد الفاسي من المغرب إلى حضر موت: 118

كانت تسمى مهل ذببة سقطت الهاء فبقي نطقها اللاتيني مالديف، وهي جزر آية: في 4- البهاء والجمال، يعرفها الدكتور مولاي علي المنتصر الكتاني -رحمه الله- قائلا: «تسمى اليوم جزر مالديف. أرخبيل مكون من ألف وسبع وثمانين جزيرة: مساحة جميعها 280 كلم²، وعدد سكانها 120000 نسمة، كلهم مسلمون. أحرزت استقلالها عام 1965م وهي الآن جمهورية. اعتنق سكانها الإسلام في القرن السادس الهجري. "تحقيقه لتحفة النظار": 654.

تمام الشهر له علاقة بحدث غريب يحصل كل شهر بين أهل هذه الجزر وعفريت، - 5
أورد القصة ابن بطوطة في تحفته: 585

نفسه: 585 - 6

/ عبد الرحمن المدني/تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب - 7
لوحة: 116-251

هكذا حلاه ابن بطوطة وزاد قائلا: «... مستوطن بلاد الهند قدمها مع أبيه وله بها - 8
أولاد فأنشدني...» تحفة النظار: 482. وذكره أيضا في: 147 و558

نزهة خاطر وبهجة المسامع والنواظر، ص 13 - 9

تحفة النظار، ص 613 - 10

خلاصة الأثر في أعيان القرن 10 و11 هـ: 2-349 - 11

إسهامات علماء شبه القارة الهندية في إثراء الفكر الإسلامي وعنايتهم بعلوم - 12
الحديث الشريف والسيرة النبوية/مقال منشور بمجلة دعوة الحق ع 253 ص 80. وتتنظر
أيضا مقالة "الجالية المغربية في العالم من خلال رحلة ابن بطوطة" للأستاذ محمد
(ع 59/ص 100-124/مجلة المناهل/الشريف

نقلا- عن "جنود مغاربة في فيتنام" لحسونة المصباحي/ مقال منشور بصحيفة - 13
الشرق الأوسط بتاريخ
م. 09-02-2003

نفسه - 14

اعتمد المسلمون في البلاد العربية كثيرا على الكاغد المستورد من سمرقند وبلاد - 15
الصين لعدة أسباب، يقول عبد الملك الثعالبي: «إن كواغيد سمرقند عطلت قرطيس مصر
والجلود التي كان الأوائل يكتبون بها؛ لأنها أحسن وأنعم وأرفق، ولا تكون إلا بسمرقند
والصين» لطائف المعارف: 218

مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص 84 - 16

مساجد النساء في الصين/ مقال منشور بمجلة "منار الإسلام" ع 7/ رجب 1423 - 17
هـ/ ص 38

يعرفه الدكتور محمد عبد الرحمن يونس قائلا: «الدكتور ياسين يانغ شياو بو، علم - 18
من أعلام الثقافة والفكر والأدب في الصين؛ أستاذ بجامعة اللغات والثقافة ببكين، يتقن
اللغة العربية كتابة ونطقا وبحثا وترجمة مثل أبنائها العرب المثقفين، ويدرسها للطلبة
الصينيين، كما يدرس اللغة الصينية للطلاب العرب في جامعة اللغات والثقافة ببكين، قدم
للمكتبة العربية إسهامات كثيرة من خلال ترجماته للأدب الصيني إلى اللغة العربية، فقد
أعد كتابا بعنوان: من بدائع الأدب الصيني، قدم فيه اثنين وستين نصا شعريا ونثرية... كما
ترجم ديوان: "بصمات الحياة للشاعر الصيني المسلم تيمور داوامات..." ينظر الحوار
الذي أجراه معه في مجلة المجلة العربية ع 311/ مارس 2003م/ ص 1

المجلة العربية ع 311/ ص 2 - 19

تحفة النظار، ص 469 - 20

بفتح الهمزة وليس بكسرهما كما يقع عند الطبع أو سبق القلم، قال ابن منظور - 21
:"العجب والعجب: إنكار ما يرد عليك لقلّة اعتياده، وجمع العجب: أعجاب، قال

(يا عجباً للدهر ذي الأعجاب.. الأحداب البرغوث ذي الأنياب (اللسان، مادة ع ج ب

تحفة الألباب، ص 129 - 22

الإمام أبو بكر محمد ابن الوليد الفهري (ت 520 هـ بالإسكندرية) صاحب أبا - 23
الوليد الباجي بسرقسطة، وأقام زمناً بالشام ومصر التي توفي بها، تذكر كتب التراجم أنه
كان من الأئمة المشتهرين بالعلم والعمل والزهد. تنظر مصادر ترجمته في تحفة الألباب:
129 هـ 242.

نفسه، ص 129 - 24

نفسه، ص 131-132 - 25

من بين الباحثين المعاصرين الذين اعتنوا بدراسة مثل هذه النصوص الدكتور - 26
جعفر ابن الحاج السلمي خاصة نصوص "الأساطير المغربية" يقول: «... إن هذه
الأساطير يمكننا أن نقول عنها: إنها قصص مقدسة، أي قصص آمن بصدقها وحقيقتها
إيماناً يقينياً أهل المغرب الأقصى، كلهم أو بعضهم. إن أخبار المهدي ابن تومرت مثلاً
تاريخ مقدس عند الموحدين، آمنوا هم به، وأخبار الصالحين أساطير آمن بها المتصوفة
والعوام وحتى بعض العلماء، وفضائل المدن أساطير آمن بها أهلها على الأقل، علماءهم
وعوامهم. لكن هذا لا يعني أن كل أسطورة مغربية كانت مقدسة عند جميع أهل
المغرب...» الأسطورة المغربية، دراسة نقدية في المفهوم والجنس: 76. وينظر أيضاً
كتاب "من الأساطير العربية والخرافات" لمحمد الجوزو (1977)، و"حول إغرابية ابن
بطوطة" لابن سالم حميش، و"استراتيجيات الغرابية في الرحلة البطوطية" لعبد النبي
ذاكر، مقالتان منشورتان ضمن أعمال ندوة ابن بطوطة التي نظمتها مدرسة الملك فهد
(العليا للترجمة بطنجة) (أكتوبر 1993م).

(معجم البلدان (مادة صين - 27

من مقدمة كتاب "من ألقم الحجر إذ كذب وفجر، وأسقط عدالة من قال من - 28
الصحابة: ما له؟ أهجر؟" لابن دحية: 6

تاريخ سبته، ص 155 - 29

منشورة ضمن ندوة ابن بطوطة المذكورة، ص 345 - 30

تحفة النظار، ص 637 - 31

نفسه، ص 684 - 32

- وهو شيخ المسلمين بهذه المدينة كما عرفه ابن بطوطة في تحفته، ص 637 - 33
- نفسه، ص 638 - 34
- نفسه، ص 684 - 35
- تتنظر ترجمته في: الإحاطة: 3/273. والدرر الكامنة: 3/480 - 36
- تلخيص شرح قصيدة البردة للبوصيري/ مخ خزانة القرويين/ فاس/ رقم 643، - 37
:عند شرح بيت البوصيري
- لعل رحمة ربي حن يقسمها تأتي على حسب العصيان في القسم
- بحث عبد السلام شقور موضوع النزعة الصوفية في شخصية ابن بطوطة ضمن - 38
مشاركته "البعث الصوفي في حياة ابن بطوطة من خلال رحلته" ص 325، وابن عمنا
الأستاذ محمد الصمدي ضمن بحثه "النزعة الصوفية في رحلة ابن بطوطة" ص 339/
ضمن الندوة المذكورة
- تحفة النظار، ص 32 - 39
- نفسه، ص 541، إلا أنه توقف بالمالديف وأقام بها سنة ونصف، ليتابع المسير بعد - 40
ذلك إلى الصين
- نفسه، ص 634 - 41
- نفسه، ص 632 - 42
- يقول بعد مشاهدته إحدى المظالم: «وذلك نوع من الظلم ما رأيت به بلاد من الكفار - 43
ولا المسلمين إلا بالصين» التحفة، ص 632
- 44 - نفسه، ص 605.